ابتلاع أحدب

نورة طاع اللّه

اسم الكتاب : ابتلاع أحدب

تأليف : نورة طاع الله

النوع : قصة

الطبعة : الأولى

سنة الإصدار : ٢٠٢٥

تصحيح وتدقيق لغوي : لمار علي

رقم الإيداع : 2025-49730

الترقيم الدولي : 978-977-94-8027-5

إهداء خاص لتلك الأرواح الغارقة بالوسط ما بين الذهاب والعودة،

وبين الاكمال أو التراجع، وما بين ما الحل وما المفر، وما العمل وأين

طريق النجاة، وما بين اتخاذ القرار في الحال أو التفكير، بين اللحظة

والأخرى لدقيقة والساعة قد كسرت عقاربها وتبللت فتعطلت، وتعطل

معها منح القليل من الوقت أو تلك الفرصة السريعة التي خطفناها

بالغصب والتهديد وهم الطرف الضعيف الذين لم يبقى لهم سوى فرصة

رفع الأصبع الأيمن ونطق الشهادة والشهادتين، فما بقي سوى الموت قد

سيطر من كل النواحي والاتجاهات والروح قد فارقت القدم

والساقين، وتهيأ للخروج النهائي، فلا الرحيل هو ذلك الرحيل المنتظر

ولا العودة هي تلك العودة إلى الديار من جديد ولا البقاء هو العيش

وسط البحر العميق المبتلع، فالوداع وداعًا لمن فارقونا والرجاء رجاء لمن هم يستعدون يفكرون في السير من نفس الطريق.

بعض البدايات شبيهة باللآ بدايات أو بتلك البدايات الفاقدة للملامح.

فليس لك أن تعرف من تكون أو كيف هي لتتمكن من خلالها السير

وفق ما هي عليه أو على الأقل معرفة ما يجب معرفته عند كل بداية.

فقط تلك التفاصيل الصغيرة المختصرة التي بها نبدأ وما بعد البداية أت

وواضح ومعلوم.

هناك شيء غريب يحدث معي. مواقف أبعد عنها وأقف فيها رغم أن

الطريق الذي سلكته واعتمدته هو غير الطريق والاتجاه الذي يوقعني في

متاهة ومشاكل ومصائب أنا أبحث لها عن حلول سريعة.

لازلت أتخبط في واقع مرير هربت منه عديد المرات إلا أنه يلازمني

وباستمرار.

لازلت أتصارع مع الذي أقوى مني لأكمل وأبقى حيث ما أنا على الأقل.

سئمت من كل ما أعيشه وأقع فيه وأتعرض له. فأنا المذنب البريء، والمتهم الذي لم يرتكب الجريمة بعد.

سئمت من طلب المساعدة من الأخرين فهناك من يستجيب وهناك من يتجاهل الذي أنا فيه.. والذي استجاب قد استجاب بعد ترجي قوي وتوسلات قد أضعفتني فوق الضعف والعجز الذي أعاني منه.

لا أدري كيف ستكون الأمور فيما بعد ألا أن الذي تعودت على رؤيته ومشاهدته عند كل بداية ونهاية سوى أحكام ضد بريء من الحياة ومن بالحياة.

لم يكن الحظ بجانبي يومًا.. فهو بكل تأكيد متخاصم معي وقد أقسم على عدم الالتفات إلى مهما كان مع أن الذي أذكره

أنني لم أتسبب في ازعاج لأي أحد ومن بينهم الحظ.

حتى الفرصة لا تمر من خلالي مع أنني أناديها هنا وهناك وبكل

الاتجاهات ومن خلال ذلك الصوت القوي المدوي تارة بلحن جذاب،

يوقظ كل المشاعر، والأحاسيس وتارة بصوت المجاهد الذي يجاهد بكل

ما يملك من قوة وامكانيات وتارة بصوت هادئ لا يكاد يسمعه القريب.

ماذا أفعل وأنا قد مررت بكل المحاولات واستعنت بكل الأسباب

وقلت لنفسي واستجابت ومستجابة عند كل طلب ونداء..

ماذا أفعل وأنا قد سئمت من هذه الحياة؟ وقررت الرحيل عند هذا

الحد رغم اجتهادي في المغادرة دومًا.

لا البقاء أصبح صالحًا وممكنًا ولا الرحيل نجحت فيه.. فأنا كما أنا في

مكاني رغم أنني سرت ما سرت وتحركت أين ما تحركت والدائرة نفس

الدائرة لم أخرج منها إلى الأن.

هل أتخلى عن كل شيء وأنا في الأصل لا أملك شيء سوى أمي التي لم أعرف غيرها منذ الولادة.

جمعت ما استطعت أن أجمعه من عملي هنا وهناك وعند هذا وذاك. بجيبي مبلغ قد يسد البعض من تكاليف الرحيل والمغادرة.

سأجتهد أكثر لأكون بالمكان الأخر. لكن كيف أترك أمي وأسير دون أن ألتفت ورائي.

كيف أتخلى على التي لم تتخلى عني يومًا وهي شريكتي في الحزن والمعاناة؟

بدأت أخطط للرحيل معًا.. أنا وهي ولا ثالث لنا.. فهذه أمي التي لا أستطيع تركها فإنني لن أكون مرتاح.

أمي هل تسافرين معي إلى حيث أخذتنا مركبتنا الصغيرة.. هذا هو السؤال الذي لم أكن بحاجة إلى طرحه فأمي لن تبقى بمكان لست فيه.. ترافقني أينما كنت وأكون معها أينما ذهبت وذهبت.

لم أفكر يومًا أين سأذهب وإلى أين الوجهة وماذا سأفعل ببلد غير بلدي وبعالم لا يشبه عالمي الصغير.

لا أريد أن أخطط لكل هذا سوى أنني أحدد طريقي وأباشر في وضع الخطوات الأولى والباقي لا أعلم وسوف يكون كما أراد أن يكون.

طلبت من نفسي وطلبت مني أن أحمل شهاداتي العلمية الجامعية كمحاولة أخيرة قد تعيد ليّ الأمل من جديد وتزيل فكرة الرحيل الغامض المجهول.

أنا بحاجة إلى فرصة تغير حياتي فأنا أستحق تلك الفرصة التي تحييني وتوقظني من الذي أنا فيه.

لم تفتح ليّ الفرصة ذراعيها يومًا.. لم تحتضني ولم تقبلني قبلة المواساة فأنا من أستحق وفعلًا أستحق.

أعلم أن أمي بغير هواء القرية تموت اختناقًا وتنسحب الروح منها عند اللحظة الأولى من المغادرة والرحيل.

أنني لا أقوى على التفكير أكثر من هذا الحد، لا أقوى على البقاء ولا على الرحيل وأنا بهذا الحال الذي لم يرد أن يعاندني ويقف في وجهي ويقاوم فيتغير.

أعيش مأساة حقيقية تقتلني بالبطيء، أعيش معاناة قد مزقتني إلى عديد القطع والأجزاء وأنا في المقابل وجب عليا جمع ما استطعت جمعه لأكمل من أجل أمي لا من أجلي ومن أجل الحياة.

عملت برغبة ونصيحة أمي ونهضت بحثًا عن مكان ليّ بهذا الوطن والحياة. نهضت فتشجيع أمي مدني بقوة لم أكتشفها يومًا ظننت أنني أسير وأعيش بلا قوة وزاد.

يوم أعمل وأيام بجانب أمي تحت أقدامها أنام.. إلى أن جاء ذلك اليوم فتلك استجابة من كثرة الطلب والدعاء.

تم قبولي بعمل جيد يتناسب مع تعليمي وتلك الشهادات. فرحت أمي وفرحت لفرحتها فاتجهت إلى أين بدأت يومي الأول الذي كان يومًا موفقًا إلى أبعد الحدود والتوقعات.

عملت بالضبط أسبوعين وأعرف حظي فإنني المنحوس الذي لا يقبله أي مكان.

أخرجوني وحل محلي ابن الصديق العامل بنفس المكان.. لا الأب موجود ولا صديق لقريبي يبقيني بقوة معرفة الذي له دور بهذا العمل والمكان.

جمعت أغراضي التي لم أضعها بمكانها بعد واتجهت إلى بوابة الخروج والانصراف.. فأنا راجع إلى صفر قد تصديت له وحاربت، ورغم كل الحروب والصراعات الصفر صفر وهو يلازمني إلى متى حقيقة لا أدري شيء من الذي كان وحدث ويحدث بين الحين والأخر.

من هنا اتخذت القرار الأخير.. الرحيل يعني الرحيل. ولن أرهق نفسي في اجتهاد ومحاولات هي سوى اهدار للوقت والصحة لا غير وأن كان.

شربت فنجان القهوة البارد في ذلك الصباح وأخبرت أمي أن الرحيل قريب وقريب جدًا فتجهزي فلن نبقى والحياة هنا ليست بالحياة.

لم تعارض غاليتي ولم يكن لها رد يعاكس ما قلت وما قررت فإنها راحلة معي راحلة.

بدأت التخطيط في جمع المال المتبقي.. ولم أجد أمامي سوى الأرض التي ورثتها أنا وأمي عن أبي .. الأرض التي سترتنا وسدت جوعنا وغطت احتياجاتنا.

خشيت من حزن أمي ومن ردة فعلها، فلم أخبرها عن قراري ببيع الأرض.

باشرت لوحدي دون علمها في البحث عن مشتري فوجدت بدل مشتري عشرة يرغبون في شراء الأرض.

والجميع مستغلون قرار رحيلي والمغادرة فلم أتلقى سعر جيد ولا حتى الثمن الذي تستحقه الأرض.

لم أستعن بالهدوء والتأجيل لبعض الوقت فقط واخترت أعلى سعر، ولأنني بحاجة إلى توقيع أمي التي لا تعلم بعد بالذي يحدث والذي أقوم به.

جهزت ما جهزته من أوراق وقررت الدخول عليها ومصارحتها، فلست أنا الابن الغشاش رغم غش الجميع ومعهم الحياة.

دخلت على أمي المستلقية على سريرها، وأول تصرف مني بعد دخولي قبلت قدميها وجلست بجوارها لأحدثها بكل هدوء.

دخلت على أمي الغارقة في نومها، وقلت لها: هل نرحل يا أمي؟

فقد جهزت نفسي للمغادرة عند الغروب لا الأول وإنما الغروب الأخير الذي قد ارتدى الظلام الداكن المنير بنجوم وقمر بعيد وعالي جدًا كعلو أحلامي التي جعلت مني اليوم راحل بلا اجتماع ولا استئذان.

سارق راحل لم يأخذ معه شيء سوى البعض القليل من أغراضه وجيوبه الفارغة المثقوبة من كل الزوايا والاتجاهات.

قد اخترت الرحيل وقررت ذلك فلا بد أن أغيب الغياب السري الذي لم يعلم به أحد.

أنني خشيت أن أتأثر فألتزم البقاء وأنا أود الرحيل في الحال..

أرحل لأكون سعيدًا وأعيش كما تمنيت ودعيت ليّ بالخير والهناء ومعها السرور لا الشقاء.

جمعت أغراضي في حقيبة الظهر الصغيرة، حقيبتي منذ سنوات التي لا تتسع إلا لعدد صغير من الأقلام والدفاتر والكتب وتلك الأغراض.

وقفت في وجه المستحيل عديد المرات.. واجهت، عاندت، سقطت، ونهضت رغم عدم قدرتي واستطاعتي.

ابتسمت عند كل صباح كما كنت تطلبين يا أمي.

عملت كل شيء وبكل شيء.. درست تعلمت سهرت لسنوات

ونجحت وانتقلت من مرحلة إلى مرحلة وكل نقلة أقول هذه هي نقلة

الأفضل والأحسن في الحياة..

وأنا هنا بموقعي هذا لم تنموا تلك الأحلام وإنما صغرت وتقلصت إلى أن

أصبحت أبحث عن قوت يومي والسلام..

كيف أجد عملًا وأين أتجه لأحصل على وظيفة توفر ليّ المأكل والمشرب

ومصروف الشهر فقط.

تخليت عن حلم الحصول على سيارة وامتلاك منزل والسفر عند كل

إجازة.

عملت عمل الحمار.. حملت أشياء بكل الأوزان والأحجام.. تلك التي فاقت وزني واستطاعتي.

جلست مع نفسي في لحظة ادراك لما حولي.

بدأت أطرح عليها العديد والكثير من الأسئلة..

وما أكثرها من أسئلة وتساؤلات لا أملك لها جواب وايضاحات.

جاوبت على ما استطعت الإجابة عنه وتركت الباقي لتجيب عنه الظروف والأيام فختما عندها الإجابات الشافية الوافية.

هل أنا بالمكان الصحيح أم سوى باقي ومقيم من أجلكم بهذه الأرض والحياة.

هل أنا راضٍ ومقتنع بالبقاء أم ماذا أريد في الحقيقة..

نظرت من حولي فلم أجد ذلك الشغف والحماس

لا وجود للرغبة وحلم البقاء.. وإرادة العمل والنجاح.

فالمكان شبيه بتلك الصحراء التي لا عمل ليّ بها سوى أنني أعد حبات

الرمل التي لم ترد الانتهاء أو حتى تبشرني بنهاية العد والحساب.

لم تفتح ليّ الحياة بعد الأبواب لأدخلها ملهوفًا مشتاق..

لم أعد أقوى على الانتظار ولا على تلك المحاولات.

لم أحدد الطريق ولم تتضح ليّ تلك الطرق والمسافات التي تجعلني

بأحسن حال والأحوال على ما يرام.

رسمت مخططي بدل المرة ألف وكل مرة أمزق المخطط وأباشر برسم الجديد من المخططات والرسومات، فلا الأحلام تتحقق من العدم وبالأرض التي لم تقدم سوى الانكسارات.

ولا الحلم هو ذلك الحلم الذي يكبر وتكتمل صورته على أرض الحقيقة والواقع.

بقيت وحيدًا وأن زارني الجميع وأقمت مع من أقمت معهم إلا أنه جاء وقت الرحيل وقول الوداع الوداع.

طريقي هو ذلك الطريق الذي صراحة لم أحدد معالمه ولم أرى أرصفته ومن أين الاتجاه.

فإنني لا أنوي على احترام كل إشارات المرور.

أمرت نفسي بتجاوز ما يجب تجاوزه لأعبر الحدود وأصل إلى ذلك الاتجاه.

الاتجاه الذي صراحة لا أدري أي اتجاه إلا أنه اتجاه فيه سأجد ما أريد بكل تأكيد وتعود الأحلام وتلك الأمنيات.

اتجاه فيه العدل قائم لا يغفل ولا يعرف للنوم سرير ولا هو بذلك الشر والشرير.

اتجاه سيتغير فيه ما يجب أن يتغير.. فكل من وصل قد وصل وهو جد سعيد ومسرور.

طريق أجهل جميع معابره واتجاهاته اتجاهات مجهولة أجهلها بالكامل..

أجهل الكثير في هذا الطريق والسير وعر والخطر يتحكم في كل

المسارات.

إلا أن الجاهل لن يبقى جاهل فالجاهل يتعلم وقد تعلم،

لم أجد من أقول لهم الوداع ثم الوداع.

فكما جمعنا الأمس فرقنا الحاضر، وغابت تلك الاجتماعات.

لم أعد أسمع للباب طرقات، ولا هاتفي تعلو رنته من بين الرنات،

وعدت نفسي بالتغيير ووعدتني بالطاعة والالتزام والثبات.

ودعت المكان وأسمعته قصيدة التعيس الحزين الذي غابت عنه

الابتسامات.

حقًا لا أريد البقاء رغم توفر المكان إلا أنني لا أريد البقاء مهما كان قد

قررت وقراري هذه المرة غير كل القرارات.. قرار المواجه المهاجم في

الحلبة يصارع من أجل لا الرحيل وإنما البقاء

أرغب بالبقاء بعالمي الذي لم أزوره إلى الآن وليست بيننا من قبل

زيارات.

لا يهمني من بقوا هنا ومن هم هناك.

فإنني راحل دون أدنى اهتمام.. راحل والرحيل من أصح الاختيارات، لم

أختر الليل موعد الانصراف. فقد يكون الفجر خير ساعة فيها التوكل

والفرج **عند** التحرك والانطلاق.

لن أصطحب معي لا الصور ولا البعض من الذكريات

اكتفيت بأنا، فتكفيني نفسي لأخاطر تحت مسمى المغامرات.

طريقي هو ذلك الاتجاه المعوج المغطى المزدحم بالحجارة والأحجار من

شتى المقاسات والقياسات.

طريق به أنهار عرفنا بدايتها والجهل الكبير بالنهايات

من نهر ندخل في بحر عميق والشاطئ هناك.

لم أشكرهم على الوقفات ولا التضحيات ولا تلك التنازلات

والمساعدات.

شكرتهم على تلك الخيبات والانتكاسات وشدة الانكسارات.

أمي، يا أمي هل سمعتي فضفضتي وهذه المخططات؟

بدأت أقول ولا أعرف ماذا أقول لها .. للحظة بدأت ألمسها وهي لا تتحرك ولم يصدر منها لا صوت ولا حركة بها أتأكد أن أمي تسمعني.

ظننت أنها نائمة بعمق فقط. بدأت أقلق وامتلكني خوف رهيب جدًا أخذني إلى حالة صعبة الوصف والحال.

أمي رحلت لوحدها. رحلت من دوني رغم اتفاقنا على الرحيل سويًا..

أمي غادرت هذا العالم وودعت الحياة دون حضوري.. استقبلت الموت بمفردها وتركتني غارقا في ظلمة الحزن والألم.

رحلت أمي وتركت ليّ القرار وحرية الاختيار ومعها أصعب اختبار وما أصعبه من وجع لا يحمل.

أمي، يا أمي. ترجيتها من أجل البقاء هنا.. أخبرتها عن استبعادي لأمر السفر والرحيل ألا أنها لا تستجيب فقد رحلت ورحل معها كل شيء.. وأي رحيل بعد الآن وأي بقاء ومن بقيت من أجلها لم تبقى لأبقى.

بقيت مع أحزاني، فلما الرحيل؟ فأمي موجودة بكل الأماكن

عشت ما عشته من دونها ولا أدري كيف مر على رحيلها السنة التي كنت فيها ميتا.

دفنتها ودفنت أنا معها.. بقيت سوى أصارع وجودي الغير مرغوب فيه من طرفي.

اقترحت عليا خالتي رفيقة أمي بأن أتزوج وأحقق رغبة أمي وتزوجت ابنتها ريماس التي هي نعمة الزوجة والرفيقة.

المال الذي جمعته من أجل الرحيل تزوجت به ابنة خالتي وبدأت أستثمر أرضي.. من متعلم إلى فلاح ينهض قبل الفجر ويبيع الخضر والفواكه بالأسواق.

أعيش حياة عادية جدًا، وأحلامي أصبحت تلك الأحلام البسيطة جدًا الغير موجود أنا فيها سوى ابني أيمن وابنتي رؤية وزوجتي ريماس.

مر على رحيل أمي السبع سنوات.. أقسم أنها مرت وكأنها سبعين سنة.. مرضت فيها وفقدت شغفي في الحياة سوى أنني أنهض وأعيش من أجل الزوجة والأولاد.

أين أنا بين الأحلام والأمنيات؟ أنا لا الحلم يعرفني ولا الأمنية ستعرفني من بين الأمنيات.

أنا الذي فقدت الكثير وما فقدته جعل مني ومن أحلامي بقايا تحتاج إلى ترميم وأن نفع الأمر فلا الترميم يعيد تلك الرغبات.

وأنا في لحظة من اللحظات التي أجلس فيها مع نفسي وسط الأرض الممتلئة بالخيرات بدأت أطرح على نفسي عديد الأسئلة والاستفسارات.. وتلك التساؤلات تجبرني أن أجيب فالسؤال لا يهدأ إلا بالجواب والاجابات.

سئلت نفسي ذلك السؤال المباشر أين أنا من كل هذا.. أين الحلم والأمنية؟ وأين ذهبت الأهداف؟ وغادرت تلك الرغبة من وسط الرغبات.

سألتني نفسي على رضائي واقتناعي، فلم أجب، فهل بقي عندي جواب ؟

وأنا وسط هذه الاستفهامات أجبت نفسي والجواب أين حلم الرحيل والرحيل في الشباب لا عند أخر العمر والأيام ولو في منتصف النهايات.

بدأت أفكر مجددًا في السفر والرحيل. أحييتها من أجلي وأجل البقية فالسفر حل من الحلول ووداعًا لكل الصعاب والمشكلات.

تكلمت مع زوجتي فهي مثل أمي وضعت القرار في كفي والقرار قراري والاختيار عن الجميع من أصعب الاختيارات.

قلت لما لا.. دعني أجرب فالذي لم يجرب لم يعرف البداية من النهاية في هذه الحياة.

لم أبدأ بالتخطيط فالفكرة قد تكونت وتجهزت منذ سنوات.. فلما التعطيل في التخطيط والتنفيذ تنفيذ عند الجد والضروري والضروريات.

طيلة هذه السنوات كنت أجمع المال لا من أجل السفر وإنما من أجل الأولاد.. جمعتها للأيام الصعبة ولتلك المفاجعات وأيام الصعاب والابتلاءات.

لم أتردد ولم أطل في التفكير وسلك الاتجاه.. مباشرة بدأت في اجراء الاتصالات. فوصلت للذي ينقلنا من الجزائر إلى إحدى الدول بإحدى القارات.

لن أغادر بمفردي فأنا ومعي الزوجة والأبناء. معي تلك الذكريات رائحة أمي وبعض الأغراض.

جمعت المبلغ وحدد موعد الانطلاق والرحيل.. جمعت ما جمعناه من أغراض والكثير بقي بالبيت فلنا عودة يومًا للزيارة لا للإقامة والبقاء.

قبل حلول الفجر حملت أنا الولد ابن الأربع سنوات وحملت هي البنت صاحبة الخمس سنوات.. قبل قفل الباب أخرجنا تلك الأغراض وحقيبة الأكل ضرورة السفر واشباح الحاجة والحاجات.

استأجرت سيارة أجرة نقلتنا إلى محطة الانطلاق.. أين يوجد قارب صغير قد لا يتسع لجميع المجتمعين من البشر والعباد.

وصلنا ووقفنا لساعات بانتظار مساعدنا في ركوب القارب وانطلاق صفارة الانطلاق.

بقينا لساعات أخرى إلى جنب تلك الساعات فلم يصل أحد بعد من المسؤولين عن رحيلنا وقبض تلك الأوراق .

بدأت السماء ترتدي الأسود فلليل الهدوء وقلة الحركة وسهولة التحرك دون لفت الأنظار.

بقى على حلول منتصف الليل فقط تلك الدقائق وبعض اللحظات وجاء الذي انتظرناه ليوم كامل زاد عن ساعة وساعات.

ركبنا القارب بالشجار واللكمات.. فالذي لم يتمكن من صعود القارب صعد بالنهاية وجلس فوق الأرجل وبين الفرغات.

انطلق القارب والذي يقوده في الغالب يجهل الاتجاه وحائر بين تلك الطرقات، ونحن معه لا يهم أين ينقلنا الأهم أننا رحلنا وتركنا الوطن على أمل الوصول وبدأ أجمل حياة.

لم أخف يومًا إلا من هذا البحر العميق الذي أستولى على معظم المساحات. بحر مخيف خطير أن التقمنا سكانه لن نعود بعدها للحياة.

على ما أظن قد سرنا ليومين والثالث يوم سيكتمل ويصير يوم من الأيام.

سرت مغمض العينين فلم أقوى على رؤية نفسي ومن معي وسط هذا البحر.. زوجتي وابني وابنتي مثلي تمامًا لم يرون معظم الطريق كيف سرناه.

ونحن بالقرب من الوصول نهض أحد الركاب.. وبدأ يتشاجر مع الجميع ويهدد بالسلاح .

أخرجنا الذي بجيوبنا فهو يريد المال فقد قربنا على الوصول والانصراف.

وجمع ما استطاع جمعه من الركاب وأنا قد أخذ مني ما كان بجيبي والحصة الكبيرة بحمالة صدر أم الأولاد.

الا أن أحد الركاب أراد أن يوقع به في قبضة البحر وعمالقة القروش والأسماك عقابًا له على تعديه على مساكين القارب الضحايا الأبرياء.

وقع اللص فسقط فرد على الخيانة وعلى هذه الضربة والموقف بضربة سلاح.

بدأ الماء ينبثق من كل الاتجاهات، فالقارب يغرق والناجي من خرج بغير اتجاه.

أنا لا أجيد السباحة وكيف سيكون حال الزوجة والأولاد.. عليا التصرف في الحال والتغلب على هذا الخطر مهما كان.

الكل يصرخ سوى أنا فقدت الصوت والكلام.. أخاطب نفسي بأعلى صوت والأصوات أحدثت فوضى وازعاج.. وكيف النجاة فلا الخوف ينقضنا ولا الصراخ منقذ للميتين بعد لحظات.

نظرت يمينًا يسارًا ومن فوقي إلا من تحتي خشيت أن أرى الموت قبل حلول الوقت والأجل..

لم أرد أن يحتلني الخوف وهو قد سكن ما سكن من أعضائي.

وأنا ألتفت يمينًا يسارًا بكل دقة وتركيزًا وفق الوقت المتاح.. لمحت شاطئًا هو بعيد بقريب والأقرب شجرة بإمكاننا الوصول إليها قبل الغرق وتوديع الحياة.

وضعت البنت والولد فوق ظهري ومسكت بيد زوجتي أطلب منها التمسك بي بقوة والبقاء بجانبنا وأن تغلب عليها الماء وقوة الموج مع رجاء التمسك بالبقاء.

ابتسمت وهزت رأسها بقبول الطلب وتحدي كل الصعاب.. وقفنا في وجه قوة الماء وكل الضربات ولم نلتفت ورائنا سوى سرت وفوقي الأولاد.. مع أنني لا أجيد السباحة إلى أنني عمت ما تيسر من القدرة والامكانيات.

لم أعد أشعر بقرب زوجتي ولا بلمستها بعد لحظة من اللحظات، فهل أتوقف أم أكمل وأنجى أنا بالأولاد؟

لم أنظر ورائي فالأولاد يبكيان وأنا قربت على الاستسلام وفي ثانية خرج من قلب البحر قرش أو الذي يقولون عنه وحش، الوحوش أكل البشر ومن بالبحر بلا فرصة النجاة.

لا أصدق ما أراه أنه القرش في الغالب ضخم البنية شديد السرعة فتاك..

بدأت أسرع فاقترب مني والتقم زوجتي .. ابتلعها بعد أن مزقها إلى أجزاء وتطايرت يدها إلى أن سقطت على رأسي وبالقرب من الأولاد.

هنا فقدت الحركة وسقط ابني أيمن أين لحقت به رؤية في الحال..

فتوقفي لثانية استغله البحر وأخذ مني أغلى البشر والأحباب.

أدخلت رأسي لأرى أين هما من الاتجاهات فلم ألمحهم ووجدت القرش يبتلع الجميع بلا استجابة للتوسلات.

افتكرت دعاء يونس وهو ببطن الحوت: "لا إله إلا أنت سبحانك أني كنت من الظالمين" على أمل أن تتحقق معي معجزة من المعجزات وكيف ودماء من هم مني ودماء أولئك الأبرياء قد اختلط بصفاء الماء والمياة.

قربت على أنني أنجوا وحيدًا فهل أكمل رحلة السفر أو أعود بأدراجي إلى الوراء..

وأنا على الشاطئ أحاول استيعاب كل هذه الأحداث.. لم أتمكن من تصديق ما رأته العين وما شاهدته دفعة واحدة أخر رحلة الموت لا السفر والانتقال.

أين الذي قال عليك بترك الوطن وركوب القارب؛ لتتغير بك الحياة

لتأخذ فرصتك الجيدة التي تستحق؟

أين الذي سافر فنجى ليخبرني هل أترك كل هذا ورائي وأكمل لأعيش

بغير عالمي مع كل هذه الأوجاع والألام.

أين أيمن ورؤية وابنة خالتي من بين الناس؟ أين أحمد الذي كان يجلس

بالقرب مني في القارب؟ أين الجميع؟ أين القرش مبتلع الاخوة

والأحباب؟

أين أنا الآن إلى أن وجدت نفسي بإحدى المستشفيات.. مريض أعاني

من كسور وبتر في اليد والساق.

أبكي عندما أفيق وأهدأ بفعل الدواء.

بقيت كم بقيت فقد استغرقت وقتًا في العلاج. لا أفهم بأي لغة يتكلمون سوى أنني أطلب منهم "لا تنقذوني لألحق بالأحباب".

لا أدري كم مكثت سوى أنني تعافيت من تلك الكسور والأوجاع .. لا من كسرة القلب ووجع الندم وغصة الآهات.

أنا بإسبانيا شاهدت العلم من شرفة الغرفة بإحدى المستشفيات..

وزارني الجزائري الذي سمع بقصتي في أزقة المستشفى وبين الأطباء والممرضات.

أنس يزورني باستمرار لترتيب خروجي من المستشفى قبل اعادتي إلى الجزائر، فلما العودة بعد الخسارة والضياع.

تمكنت من الخروج وركبنا القطار واتجهنا إلى إحدى الأرياف أين يكون الاختباء سهل وأحسن قرار.

مكثت ما مكثت بريف اسبانيا وأنس غادر دون رجعة وبقيت لوحدي أصارع مع عدة مشكلات.

فلا الذي يكون معك سيبقى معك ولا الذي زارك سيزورك بين الحين والحين ولا الذي رحل سيعود وان ناديته بملا ملل باستمرار.

أخاف أن أعاتب نفسي فأنهيها عند العتاب الأول.. أخاف أن أواجه مصيري فأنصدم بالأشد منه.. فما العمل وما الحل وأين المفر؟

يجب أن أخلق لنفسي حياة وأجد لنفسي منفذًا من خلاله أصل إلى بر الأمان.

بدأت أدقق في المداخل والمخارج؛ لأعرف من أي اتجاه أسير.. كل الطرق وعرة إلا طريق واحد صعبة وممكن.. وما كان على جواد سوى سلكه مهما كلف الأمر وهذا ما كان.

جمعت نفسي وأمرتها بالاستعداد وكان الرحيل الذي لم يرد أن ينتهي.

سلكت الطريق الذي سيوصلني إلى الاستقرار فهذا طريقي والطريق الذي توصلت إليه أخيرًا.

كان لا بد أن أغامر وفي نفس الوقت أخاطر، وأنا مع بدايات الوصول لمحت مجموعة من الناس مجتمعين، شكرت لويس الذي أوصلني بسيارته واجتمعت مع المجتمعين الذين كانوا بانتظار من ينقلهم إلى الوجهة الأخيرة.

لم أتكلم مع أحد لكي لا ينكشف أمري والتزمت الصمت قدر الإمكان..

حتى أنه لم يسألني أحد من أنا ومن أكون فالجميع منشغل ومهيأ للانتقال

للجهة الأخرى.

وصلت شاحنات البضائع وبدأ كل واحد بالاختباء بإحدى الصناديق

الخاصة بالبضاعة وأنا دون تردد ركبت واختبأت بصندوق به صوف.

بدأت الشاحنات في التحرك وأنا لا يمكنني أن أرى شيئًا سوى أنني

أبقى مكاني لا أتحرك ساكنًا.

وبعد السير لبعض الوقت توقفت الشاحنة وفتحت أبوابها، وقفت

واتجهت نحو إحدى الفتح لأرى ما يحدث لمحت رجال أمن الحدود

بإسبانيا يريدون تفتيش الشاحنة.

أنا بسرعة اختبأت بين أكياس الصوف كبيرة الحجم وبقيت بالزاوية الضيقة أحاول حتى كتم نفسي لكي لا ينكشف أمري.

فتحوا الصندوق المتواجد أنا به.. وبدأ رجلان يحملان السكين بتوجيه ضربات عشوائية على الأكياس ليتأكدوا أنه لا يوجد أحد بداخل هذه الأكياس.

أصبت بإحدى الطعنات.. فوضعت يدي على فمي لكي لا يصدر مني صوت وبدأت أسحب نفسي إلى الوراء أكثر لكي لا يتسرب الدم وينكشف أمري.

تحملت ألم الطعنة التي كانت برجلي الأيمن المتبقي.. أغلقت أبواب الشاحنة من جديد وأنا سارعت إلى فك الخيوط المربوطة بها الأكياس لأربط الجرح ويتوقف النزيف.

وأنا أتألم هناك من يحدثني بالقرب مني، تكلمت معه وسألته: أين نحن ذاهبون؟ فقال: إلى المغرب.

هنا فقدت الوعي ولم أشعر بشيء بعدها. إلى أن فتحت عيناي وجدت نفسي بغرفة بسيطة وأنا مستلقي على السرير وبجانبي الدواء والأكل.

استيقظت مفزوعًا وأنا في الأصل لا أستطيع التحرك بكل حرية.. دخل عليا رجل وامرأة وبدأ في تهدئتي.

وصلت إلى المغرب وتم اسعافي من طرف الشخص الذي كان يحدثني من الصندوق بالشاحنة.

من كثرة الصدمات أنا لا أشعر بالحياة، لا أجيد التفكير عند حلول الصدمة ولا الوقوف من مكاني.

أنا بالمغرب الآن، كيف وأنا وجهتني الأولى منذ البداية كانت إحدى الدول الأوروبية.

فعلًا مفاجئات الحياة غير متوقعة دومًا.. والمستبعد هو حاصل في ذلك الوقت القريب.

فقدت أمي، ونفسي، وزوجتي، وابنتي، وابني، ويدي، ورجلي؛ لأكون بالنهاية بالمغرب بلا مستقبل وبلا حياة.

قد يكون تسرعي وتهوري في اتخاذ القرارات هو الذي أودى بي إلى كل هذا وهذا بكل تأكيد.

سأعود إلى الجزائر.. سأعود من حيث أتيت فلا بقاء ليّ هنا ولا بأي مكان سوى العودة إلى الوطن بالنهاية لألقى النهاية التي أستحق.

وجدت مجموعة من الشباب بالمغرب يريدون الذهاب إلى الجزائر وأنا أريد العودة فاتفقنا على الرحيل معًا.. ولن أختبأ ثانية سوى أعيش أدفع فواتير قراراتي واختياراتي.

شكرت العائلة التي أنقذتني من الموت ولم أرد البقاء طويلًا؛ لكي لا أتسبب لهم بمشاكل.. وأنا في الوقت ذاته أرغب في العودة إلى الوطن قريبًا.

استأجرنا قارب لنسافر إلى الجزائر بحرًا هذا ما تم الاتفاق عليه فالحدود البرية مغلقة والسفر برًا أمرًا مستحيلًا.

لم يكن بحوزتي المال الذي يؤهلني للسفر وإنما قطعت وعدًا بأنني سأستضيف الجميع بمنزلي وأرضي.. وحدد موعد المغادرة.

ركبنا القارب ليلًا ونحن نرتدي المغامرة الوعرة الخطرة التي قد لا يكون فيها نجاة.

تحرك القارب وبمجرد السير لبعض الوقت وجدنا مصابيح وأنوار صوبت باتجاهنا اذ بالأمن المغربي يؤمرنا بالتوقف ورفع الأيدي في الحال.

لم يستجب أحدا لهذا الأمر وأصرينا على الاستمرار في السير..

رغم كثرة النداء من طرفهم إلا أن العناد قد امتلكنا وأنا خوف البقاء قد سيطر عليَّ.

في الأخير من معي رفعوا الأيادي واستسلموا وأنا فضلت مواصلة الطريق باتجاه الجزائر.

تضاربت بيننا القرارات بين مستسلم وبين مُصر على الاستمرار.

لم أفكر في تغيير القرار وبقيت على قرار السير وصولًا إلى أرض الأحرار.

رغم أن الوصول واكمال ما تبقى سوى حلم لن يتحقق كباقي الأحلام التي تبخت وكانت سوى رماد ظلام ساد عالمي.

مات من مات وعاش من عاش، والذي مات قد مات في بحر ليس بالظالم وإنما قرار الرحيل الغير شرعي هو من أنسى على تلك الأرواح.

لن تبنى الأحلام ولن تتحقق بتلك القرارات التي غاب عنها العقل وكانت قرارات من أراء الذي هاجر ووصل ولم يرد قول الحقيقة سوى أن الأمور على ما يرام والحياة هناك أروع حياة وما يخفيه أحمد أو محمد أو محمود واقع نعلمه الجميع.

كنت أظن أنني ذلك القوي الشجاع الذي لا يهاب لا ظلمة الظلام، ولا وحشة الغربة، وغربة مع العباد وأقف في وجه الخطر وأنا من نادى للخطر من بعيد.. كنت أظن البطل الذي يحارب في وسط الذي لا حرب فيه.

هربت من الظروف بحثًا عن الأفضل فكان ليّ أن أواجه الظروف وأتحداها وأبقى مكاني لتفر الظروف وتتجه حيث ما تتجه فالمكان مكاني وهنا البقاء.

كنت منصتًا جيدًا للذي ذهب ولم يكشف عن حاله للأن فقال ما قاله ولقوله كان القرار ولا احتمال في الغالب للنجاة.

مات الابن والبنت والزوجة ومعها الألاف من البشر والناس. فهذا الحال هو نفس الحال لم يتعلم أصحابه والموت يدوي سوى بعد لحظات.

على من نعيب على الوطن الذي لم يطردنا ولم يقفل في وجهنا ألف باب أم على الظروف التي كان بإمكاننا تخطيها بألف حل وحلول أم على من نادانا من بعيد عند النداء الأول فاستجبنا وقلنا هيا للرحيل.. أم العيب فيها والعيب عيبنا فنحن من تركنا مليون حل لهذا الوضع والحياة ووراء وهم وانتحار نعيه وقلنا نحن الشجعان أبطال المغامرة والمخاطرة.

هذه هي معظم النهايات موت وجثث يرميها البحر هنا وهناك ومن تجد لها حفرة قليل ومن وصل به الحال في غير البلد فهم كثر، فالجثث لا تعرف لها مكان قد تدفن وقد ترمى إلى أن تتجانس مع التراب..

هل أثق بالبحر للمرة الألف وأنا بلا رجل وساق أو أقف مكاني وأقول أنا المذنب طالبًا العفو والنجاة أو أكمل بأي طريقة فكانت رصاصة

إحدى الحراس قد رشقت بذلك القلب ضربة من محترف حدد الهدف ليقتل ذلك الأمل وحتى الأمل في العيش والنجاة.

نهايتي نهاية لو جلست مع العقل جلسة تشاور لما كان حالي المقتول هي النهاية، ونهاية من لازال يختار البحر طريقًا للهرب من اللا هروب فيه.

فتبًا لا على هذه الحياة، تبًا على من هو هناك ويلطف الجو لمن ضاقت به السبل والحياة، فصدق كذبة المهموم الذي ينام في إحدى الطرقات وطعامه من صناديق القمامة وشكله شكل المشرد الفاقد للمأوى والأهل وأبسط حياة.

تبًا لا على الظروف وإنما على تفكير أصر على رؤية حاله بالحال الذي لن يرى النور إلا عند الغرباء.

تبًا لمن رأى ويرى فرنسا فيها السعادة والهناء والجزائر أم الشقاء فما شقى إلا كل مغترب ذاق ويلات الويلات.

تبًا لمن ترك الأهل والأحباب فوجعتهم والوجع الأكبر موتك وعلمهم في لحظة الحيرة والبحث عن أمل يعيد لهم الروح ويطمئن القلب بعض ليالي وأيام.

وفي تلك اللحظة التي أحاول فيها النجاة كنت قد فقدت الحياة.. وقعت مصابًا بإحدى الرصاصات صبت من ماهر سحب الروح وأزاحني عن الحياة فوقعت كما وقع الجميع في بحر عميق لن يعيدني الروح للجسد وأن كان هناك أمل العيش والبقاء.

وتنتهي حكاية من انتهت حكايتهم قبل البدء.. قبل الوصول والفرح بالنجاة ومن ظن أن الهناء ينتظره فهو من لن يجد مكانًا للبقاء.